مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية
مجلد ٤ – عدد ٢ (٢٠٢٤): ٤٥-٥٧

Damascus University Journal of arts and humanities sciences Vol 4-No.2 (2024):45-57

موافقةُ المعاني للألفاظِ المُختارةِ في أشعارِ لَيلى العامِرِيَّةِ

تمّام محمد المحمد العلي[١]، د. خليل عبد العال[٢]

١- طالب ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، سورية.

tammam alali@damascusuniversity.edu.sy

٢- مدرس، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، سورية.

المُلخَّصُ:

هذهِ دِراسةٌ قائمةٌ حولَ اللَّفظِ والمعنى بشكلٍ عامّ، وحولَ التَّوافقِ بينَ اللَّفظِ والمعنى في أشعارِ لَيلى العامِرِيّةِ بشكلٍ خاصّ، فالهدفُ الَّذي تقومُ عليهِ الدِّراسةُ هوَ الكشفُ عن هذا التَّوافقِ في أشعارِها مِن خلالِ دراسةٍ تطبيقيَّةٍ سأقومُ بِها، أحاولُ مِن خلالِها إيضاحَ ما تهدفُ إليهِ هذهِ الدِّراسةُ.

وقدِ اقتضَتِ الدِّراسةُ التَّمهيدَ لها وذلكَ بالحديثِ عنْ قضيَّتَيّ اللَّفظِ والمعنى عندَ العلماءِ والنُّقَّادِ القدماءِ مِنهم والمُحدثينَ، كما بدأْتُ الدِّراسةَ بذكرِ لَيلى ونسبِها وما وقعَ مِن خلافٍ فيهِ، وذكرَتُ بعضَ أخبارِها معَ قيسِ بنِ المُلَوّحِ، وما كان بينَهُما مِن حُبٍّ ووُدٍّ، كما ذكرْتُ ما وصلَ إلينا مِن أشعارِها، وقدْ ذكرْتُ في دراستي لأشعارِها بعضَ القِصصِ التَّي دفعَتْها لقولِ البيتِ أوِ الأبياتِ، وأنهيتُ هذهِ الدِّراسةَ بتأْكيدِ هذا التَّوافقِ، وختمْتُها بخاتمةٍ مُناسبةٍ مُذيَّلةٍ بأبرزِ النَّتائجِ الَّتي خلصْتُ إليها، فضلًا عَن قائمةٍ بالمصادرِ والمراجعِ الَّتي أفدْتُ مِنها.

الكلماتُ المُفتاحيَّةُ: اللَّفظُ، المَعنى، التَّوَافُقُ.

تاريخ الإيداع:٢٠٢٢/١١/١٠
تاريخ القبول:٢٠٢٢/١٢/١٩

حقوق النشر: جامعة دمشق – سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص
CC BY-NC-SA 04

Agreeing with the meanings of the selected words In the poems of Layla Al Amriya

Tammam mohammad almohammad Al-Ali[1], Dr. Khalil Abdel Aal[2]
1- Damascus University, Faculty of Arts and Humanities, Arabic Language Department.
tammam alali@damascusuniversity.edu.sy
2- Damascus University, Faculty of Arts and Humanities, Arabic Language Department.

Abstract:

This is an existing study about the word and the meaning in general, and about the agreement between the word and the meaning in the poems of Layla Al - Amiriya in particular, for the goal that the study is based is the disclosure of this arrest in its poems through the fact that it is a matter.

The study necessitated a prelude to it by talking about the two issues of wording and meaning among the ancient scholars and critics among them.

And the hadith scholars, as I began the study by mentioning Layla and her lineage and what had occurred of disagreement therein, and she mentioned some of her news with Qais bin Almolaweh

And what was between them of love and affection, as I mentioned what reached us of her poems, and I mentioned in my study of her poems.

Some of the stories that prompted her to tell the verse or verses, and I ended this study by confirming this concordance, and concluded it with an appropriate conclusion appended to the most prominent results that I concluded and a list of my references and references.

key words: The word, The meaning, The harmony.

Received: 10/11/2022
Accepted: 19/12/2022

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a
CC BY- NC-SA

لَيلَى العَامِرِيَّةُ اسمُها ونسبُها:

هي: لَيلَى بنتُ سَعْدِ بنِ مَهْدِيّ بنِ رَبِيعةَ بنِ الحَرِيشِ بنِ كَعْبِ بنِ رَبِيعَةَ بنِ عَامِرِ بنِ صَعْصَعَةَ بنِ مُعَاوِيةَ بنِ بَكْرِ بنِ هَوَازِن[١].

وقيل: هي لَيلَى بنتُ مَهْدِيّ بنِ سَعِيدِ بنِ مَهْدِيّ بنِ رَبِيعَةَ بنِ الحَرِيشِ[٢].

شاعرةٌ أُمويَّةٌ، وهي لَيلَى المجنون الّتي عُرِفَ بها قَيسُ بنُ المُلَوّحِ ونُسِبَ إليها حتَّى صار يُعرَف بمجنونِ لَيلَى.

وقد عشقَتْ قَيسًا مثلَما عشقَها، وقالَتْ فيهِ شعراً. فكان أجملُ ما في حُبّهما أنَّه مُتبادلٌ تتجاوبُ فيهِ القُلوبُ، فقدْ كان كُلٌّ مِنهما يهيمُ بصاحبِه، فطغَيا على كُلِّ المُحبّين، وانتزعَ مِنهم قيسٌ أغلبَ ما قالُوا وما يقُولون، وصارَتْ لَيلَى لكثرةِ ما شهَّرَها مثلًا لكُلِّ مُتشوّقٍ، وسُترةً لكُلِّ محبوبٍ، حتَّى قيلَ: « كُلٌّ يُغنّي على لَيلَاه»[٣].

وكانَتْ لَيلَى ذاتَ حظٍّ وافرٍ مِنَ الجمالِ وهذا واضحٌ مِن وصفِ قَيسٍ لها, ولكنَّ وصفَهُ ليسَ يكفي لإعطاءِ الحُكمِ، لأنَّ الحُبَّ يُعمِي ويصمُّ، غيرَ أنَّ صاحبَ كِتاب الأغاني أثبتَ حقيقةَ وصفِ قَيسٍ لِلَيلَى في قصَّةٍ ذكرَها فِيه[٤].

كانَتْ تُكْنى بأُمِّ عَمْرٍو وأُمِّ مَالِكٍ، وقد زُوِّجَتْ بغيرِ قَيس رُغمًا عنها؛ لأنَّ حُبَّهما صارَ حديثَ النَّاسِ، والعربُ تعُدُّ هذا مدعاةً للمنعِ والتَّفريقِ والحرمانِ، فلمَّا علمَ أهلُها بغرامِه وأشعارِه منعُوه مِن زِيارتِها، فهلكَ أسًى وحسْرةً عليها.

شِعرُها:

كانَتْ لَيلَى شاعرةً، ولكنَّها لم تكُنْ كثيرةَ الشِعرِ مِثلَ قَيسٍ، ويدُلُّ على هذا ما وصلَ إلينا مِن أشعارِها الَّتي رُبَّما سقطَ بعضُها ولمْ يصِلْ مِنها إلَّا القليلُ، وذلكَ بفعلِ الضَّياعِ الَّذي طالَ مُعظمَ أشعارِ الشُّعراء القُدامى، أو رُبَما تكونُ قدْ أُشبعَتْ شِعراً مِنَ المجنونِ فلمْ تعمدْ إلى قولِه إلَّا في مواضِعَ تتطَلَّبُ مِنها قولَ الشِّعرِ.

وقدِ انتهى إلينا مِن أشعارِها ثلاثونَ بيتًا لا غَير، مُعظمُ هذهِ الأشعارِ وردَتْ في ديوانِ المجنونِ الَّذي جمعَه أبو بَكْرٍ الوَالِبِيّ، وأعادَ جمعَهُ وتحقيقَهُ عَبْدُ السَّتَّارِ أحمد فَرَّاج.

اللَّفظُ والمعنى:

أيُّهما وُجِدَ أوَّلًا اللَّفظُ أمِ المعنى؟

هلْ يخطرُ اللَّفظُ أوَّلًا على النَّفسِ، باعْتبارِ أنَّه معروفُ المعنى عندَها، فتضمُّ إليهِ لفظًا آخرَ معروفَ المعنى أيضًا، لتُؤلِّفَ مِنهما، ومِن أمثالِهما عِبارةً تُؤدِّي الفكرةَ الَّتي تراءَتْ، وتشرحُ العاطِفةَ الَّتي اهتزَّتْ فيها؟

هلْ تجيشُ النَّفسُ أوَّلًا بالمعنى، فتأخذُ في جمعِ أطرافِه، وتنقيتِه بنفي الفُضولِ عنه، وبذَلكَ يُصبحُ فكرةً واضحةً، أو وجدانًا مُتميّزاً، وحينَئذٍ تبحثُ عنِ العِبارةِ الَّتي تُؤدّيه؟

---

(٢) الأغاني: ٧/٢.

(٣) جمهرة أنساب العرب : ٢٨٨/٢.

(٤) ديوان مجنون ليلى: ٧.

(٥) ينظر الأغاني: ٥٦/٢.

هل يخطرُ المعْنى واللَّفظُ معًا في آنٍ واحدٍ في منطقةٍ خاصَّةٍ مِن مناطقِ النَّفسِ، يتراءَيان لها في لحظةٍ واحدةٍ، ثُمَّ يأْخُذانِ في الوُضوحِ والظُّهورِ، ينتقلانِ مِن منطقةِ البيانِ فيها إلى أسلَاتِ[1]الألسنةِ فتدْفعُهما إلى الحياةِ الخارجيَّةِ مُتصاحِبينَ مُتعانِقِينَ كما كانا داخلَ النَّفسِ، في مكان الشُّعورِ باللُّغةِ في متاهاتِها[2]؟

القولُ في هذهِ القضيَّةِ قديمٌ جِدًّا، وأوَّلُ مَن عمدَ إلى ذلِك بِشْرُ بنُ المُعْتَمِرِ(ت ٢١٠ هـ) في صحيفتِه الَّتي وضعَها لتعلِيمِ البلاغةِ، الَّتي تُعدُّ أوَّلَ صَحيفةٍ في البلاغةِ، ومِمَّا جاءَ فيها قولُه: «ومَن أراغَ[3] معنًى كريمًا فليَلْتمسْ لهُ لفظًا كريمًا؛ فإنَّ حقَّ المعنى الشَّريفِ اللَّفظُ الشَّريفُ، ومِن حقِّهِما أنْ تصونَهُما عمَّا يُفسدُهما ويُهجِّنُهما، وعمَّا تعودُ مِن أجلِه أنْ تكونَ أسوأَ حالًا منكَ قبلَ أنْ تلتَمِسَ إظهارَهُما، وترتهنُ نفسَك بمُلابستِهما وقضاءِ حقِّهِما[4]».

فالواضحُ مِن جملةِ كلامِه أنَّ المعنى هو الَّذي يجولُ في الذِّهنِ أوَّلًا، ثُمَّ يستدْعي لهُ ألفاظًا تُؤَدِّيه.

ومنهم الجَاحِظُ (ت ٢٥٥ هـ) مِن خلالِ عبارتِه الشَّهيرة: «المعاني مطروحةٌ في الطَّريقِ يعرفُها العجميُّ والعربيُّ، والبدويُّ والقَرويُّ. وإنَّما الشَّأنُ في إقامةِ الوزنِ، وتخيُّرِ اللَّفظِ, وسُهولةِ المخرجِ، وفي صِحَّةِ الطَّبعِ وجَودةِ السَّبكِ، فإنَّما الشِّعرُ صناعةٌ، وضربٌ مِنَ النَّسجِ، وجنسٌ مِنَ التَّصويرِ[5]».

وإنْ كانَ قولُه هذا يحطُّ مِن قدرِ المعاني إلَّا أنَّنا نراهُ في مُصنَّفِه «الرَّسائلِ الأدبيَّةِ» يعتني بالمعاني عنايةً لا تَقلُّ عَن عنايتِه بالألفاظِ، فهوَ وإنْ كانَ يختارُ ألفاظَهُ، ويُنمِّقُ عباراتِهِ، ويُصفِّيها مِنَ الشَّوائبِ، فإنَّهُ أيضًا كانَ يرُومُ المعانيَ الرَّائِعةَ، ويُدقِّقُ في أدائِها. يقول: «رُبَّما خرجَ الكتابُ مِن تحتِ يديَّ مُحصَفًا[6] كأنَّهُ متنُ حجرٍ أملسٍ، بمعانٍ لطيفةٍ مُحكمةٍ، وألفاظٍ شريفةٍ فصيحةٍ[7]».

أمَّا ابنُ طَبَاطِبَا (ت ٣٢٢ هـ) فقد رأى غيرَ ذلِك، فقالَ: «إذا أرادَ الشَّاعرُ بناءَ قصيدةٍ مخَضَ المعنى الَّذي يُريدُ بناءَ الشِّعرِ عليهِ في فكرِه نثراً، وأعدَّ ما يُلبسُه إيَّاهُ مِنَ الألفاظِ الَّتي تُطابقُه[8]».

وأمَّا قُدَامَةُ بنُ جَعْفَر (ت ٣٣٧ هـ) فقدْ أولى المعنى أهمِّيَّةً كُبرى في نظريَّتِه في الشَّعرِ عامَّةً، حيثُ يُؤَلِّفُ عندَه مدخلًا يضبطُ تصوُّرَه ائْتلافُ عناصرِ النَّصِّ بالاستنادِ إلى فكرةِ صورةِ المعنى[9].

وقد رأى ابنُ جِنِّي (ت ٣٩٣ هـ) في خصائصِهِ أنَّ المعنى هو المقصودُ الأهمُّ، وأنَّ اللَّفظَ يكونُ خادمًا للمعنى لا غَير.

غيرَ أنَّ بعضَ نُقَّادِ القرنِ الخامسِ الهجريّ قالوا بضرُورةِ توافُقِ المعاني والألفاظِ، ومِنهم المَرزُوقِيُّ (ت ٤٢١ هـ)، إذْ يقول:

«ويتلَّخصُ الموقفُ العامُّ في ضرورةِ تحقيقِ التَّشاكُلِ والتَّوافُقِ بينَ الألفاظِ والمعاني، حيثُ تكونُ دلائلُ ذلكَ كُلِّهِ حُسنَ التباسِ بعضِها ببعضٍ، لا جفاءَ في خلالِها ولا نُبُوَّ، ولا زيادةَ فيها ولا قُصورَ[10]».

---

(١) أسلات الألسنة: أطرافها.

(٣) قضيَّة اللَّفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربيّة: ٢٠.

(٢) أراغ: أي طلب وأراد.

(٥) البيان والتَّبيين: ١٣٦/١.

(٦) الحيوان: ١٣١/٣، ١٣٢.

(٢) محصفٌ: أي كثيفٌ قويٌّ.

(٨) الرسائل الأدبيّة للجاحظ: ٣٧٧ .

(٩) عيار الشِّعر: ٨.

(١٠) اللَّفظ والمعنى في التَّفكير النَّقدي والبلاغي عند العرب: ٦٧/١ .

(١١) شرح الحماسة للمرزوقي: ١١.

ومِنهم ابنُ رَشِيق (ت ٤٥٦ هـ)، ومِن قولِه في هذه القضيَّة: «والبيتُ مِنَ الشِّعرِ كالبيتِ مِنَ الأبنيةِ، قرارُهُ الطَّبعُ وسَمْكُه الرِّوايةُ، ودعائِمُهُ العِلمُ وبابُه الدُّرْبةُ، وساكِنُه المعنى، ولا خيرَ في بيتٍ غيرِ مسكونٍ[١]».

وينُمُّ تشبيهُ بُنيةِ البيتِ الشِّعري بالبناءِ عَلى فهمٍ لشكلٍ مِن أشكالِ تلاحُمِ عناصرِهِ، مِمَّا يجعلُ كمالَهُ غيرَ مُتأتٍّ بغيابِ أحدِها.

وأمَّا الجُرجَانِيُّ (ت ٤٧١ أو ٤٧٤ هـ) فلهُ رأْيٌ يُؤَيِّدُ المعنى، يقولُ: «إنَّ المُتكلِّمَ يُرتِّب المعانيَ في نفسِه، ثُمَّ يحذُو على ترتِيبِها الألفاظَ في نُطقِه، وإنَّ الإنسانَ لا يستطيعُ أن يجيءَ بالألفاظِ مُرتَّبةً إلَّا بعدَ أنْ يُفكِّرَ في المَعاني ويرتِّبَها في نفسِه[٢]».

الَّذي يُفهمُ مِن كلامِه أنَّ المعانيَ سابقةٌ للألفاظِ، وأنَّها تقعُ في النَّفْس مُجرَّدةً عنها.

ومِنَ الكُتَّابِ الغربيين مَن قال: «لا يوجدُ لفظٌ ومعنًى مُستقلَّانِ، وإنَّهما ليسا كالماءِ والقَدحِ بمعنى أنَّه لا يُوجدُ معنًى أوَّلًا ثُمَّ يُسكبُ اللَّفظُ فِيه، وإنَّ الإنسانَ حينَ يتكلَّمُ إنَّما يتكلَّمُ معنًى ولفظًا في وقتٍ واحدٍ، فليسَ للمَعنى كيانٌ بلا لفظٍ [٣]».

فهُمْ يُؤكِّدون أنَّ المعنى حينَ يجول في النَّفس يكون معه لفظُه، ولا يُمكن أن يتكوَّنَ في الخاطر مُجرَّداً.

ومنهم مَن رفض أن يفصلَ بين اللَّفظ والمعنى عِندما ينقد أثراً أدبيًّا، ويرى أنَّ هذا غير مقبولٍ، وأنَّه مِنَ العبث أن يسألَ: أين هيَ القيمةُ الحقيقيَّةُ للشِّعر؟ أهي في المُحتوى أم في الشَّكل؛ لأنَّ الاثنين مُتلاحمان، لا ينفصلان. ويقولون: «التَّجانس بين المحتوى والشَّكل ليس مِن قبيل المُصادفة، وإنَّما هو جوهرُ الشِّعر، ما دامَ شِعراً، تنمو القصيدةُ بالجسم والرُّوح حتَّى تتمَّ خلقًا سويًّا[٤] » .

فهم– كما رأينا– يذهبُونَ إلى المُساواةِ بينَ اللَّفظِ والمعنى.

لمْ يتَّفقِ العُلماءُ_كما رأينا_ مِن قُدامى ومُحدثين على رأيٍ واحدٍ، تطمَئنُّ إليهِ النُّفوسُ المُتلهِّفةُ إلى معرفةِ الحقائقِ على وجهِها الصَّحيحِ الصَّريح.

غيرَ أنَّ العُلماءَ القُدامى كانَتْ أكثرُ عباراتِهم تدُلُّ على أنَّ المُتكلِّمَ يستحضرُ المعنى في ذهنِه أوَّلًا، ثُمَّ يبحثُ لهُ عَن لفظٍ يُؤدِّيهِ بهِ.

أمَّا رأيِيَ الشَّخصيُّ فأراهُ أميلَ للمعنى على حِساب اللَّفظِ، فلولا ما جالَ في النَّفسِ مِن فرحٍ أو حُزنٍ، أو غيرِ ذلك مِنَ المشاعرِ العاطفيَّةِ لمَا رأينا هذا السَّيل مِنَ الكلماتِ الَّتي تأتي لتُعبِّرَ عمَّا يشعرُ بهِ المُتكلِّمُ، فالألفاظُ الَّتي يستدْعيها عندَما يفقدُ ولداً، أو عِندما يهجُرُه مُحبٌّ غيرُ الألفاظِ الَّتي يستدعيها عندَما يُقابلُ محبوبتَه، أو عندَما يَفخرُ بنسبٍ أو بنصرٍ. وهذا كُلُّه يصبُّ في مجرًى واحدٍ هو أنَّ المُتكلِّمَ يستشعرُ المعانيَ أوَّلًا، ومِن ثُمَّ يُجنِّدُ الألفاظَ المناسبةَ الَّتي تخدمُ تلكَ المعاني وتؤدِّي الغرضَ المُرادَ مِنها على أكملِ وجهٍ.

وعليهِ سأسعى في بحثي هذا إلى البحثِ في هذِه القضيَّةِ، في ما وصلَ إلينا مِن أشعارِ ليلَى العامِريَّةِ لمعرفةِ مدى التَّوافُقِ في أشعارِها بينَ اللَّفظِ والمعنى، وهل جاءَتْ ألفاظُها خادمةً لمعانيها، أم سارَ كُلٌّ مِنهما في طريقٍ، بمعنًى آخرٍ هل جاءَتْ ألفاظُها موافقةً لمُقتضى حالِها الَّذي كانَتْ عليهِ واستدْعَتْ مِن أجلِهِ تِلكَ الألفاظُ أم لا.

وقبلَ البدْءِ لا بُدَّ مِنَ الإشارةِ إلى أنَّ العلاقةَ المُتفاوتةَ الأبعادِ بينَ اللَّفظِ والمعنى تنقسمُ إلى ثلاثِ نظرياتٍ هي:

_ **الإيجازُ:** وهوَ وضعُ المعاني الكثيرةِ في ألفاظٍ أقلَّ، معَ وفائِها بالغرضِ المقصودِ ورعايةِ الإبانةِ والإفصاحِ فيها.

_ **الإطنابُ:** وهوَ زيادةُ اللَّفظِ على المعنى لفائدةٍ.

_ **المُساواةُ:** وهيَ تساوي اللَّفظِ والمعنى، فيما لمْ يكُنْ داعٍ للإيجازِ أوِ الإطنابِ.

---

(٢) العمدة: ٢٤٨/١.

(٣) دلائل الإعجاز: ٤٠.

(٤) قضيَّة اللَّفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربيَّة: ٢٥ .

(١) فنُّ الشِّعر: ١٩٨ .

أمَّا الإيجازُ، فالشاعرُ يمكنُ أنْ يكونَ قريبًا مِنه، ولا سيما إنْ كانَ مُحِبًّا؛ لأنَّ المُحبَّ يحملُ مِنَ المعاني سيلًا، قدْ يُعبِّر عنها بألفاظٍ أقلَّ معَ ضمانِ خدمةِ تِلك المعاني، وأمَّا المُساواةُ، فالشَّاعرُ المُحبُّ يعمدُ إليها لإيصالِ كُلِّ معنًى يحملُهُ بلفظٍ يختارُهُ، وهذهِ هيَ البلاغةُ؛ لأنَّ الألفاظَ تكونُ قوالبَ المعاني[1]، وأمَّا الإطنابُ، فلا؛ لأنَّ الشِّعرَ لا يُمكنُ أنْ يكونَ آلةً تُنتجُ الألفاظَ، بلْ يُنتجُ معانيَ تتناغمُ معَ الكلماتِ والإحساسِ.

وقبلَ أنْ أبدأَ لا بُدَّ مِنَ الإشارة إلى أنَّ المنهجَ الَّذي سوف أتَّبعُه في هذه الدِّراسةِ هو المنهجُ الوصفيُّ التَّحليليُّ، كما أنَّ المادةَ العلميَّةَ قد تستدعي الاستعانةَ بغيرِهِ مِنَ المناهجِ ولا سيَما المنهجُ التَّاريخيُّ.

الدِّراسةُ التَّطبيقيَّةُ:

يقولُ ابنُ طَبَاطِبَا: «فمِنَ الأشعارِ أشعارٌ مُحكمةٌ مُتقنةٌ، أنيقةُ الألفاظِ، حكيمةُ المعاني، عجيبةُ التَّأليفِ، إذا نُقِضَتْ وجُعِلَتْ نثراً لم تَبطُلْ جَودةُ مَعانِيها، ولمْ تفقُدْ جزالةَ ألفاظِها[2]».

وهذا الكلامُ ينطبقُ على قولِ لَيلَى عندَما أرادَتْ أنْ تعلمَ هل لها عندَ المجنُونِ مثلَ الَّذي لهُ عِندها مِن حُبٍّ، فجعلَتْ في أحدِ الأيَّامِ تُعرِضُ عن حديثِهِ ساعةً بعدَ ساعةٍ وتُحدِّثُ غيرَه، وقد كان علقَ بقلبِه مثلُ حُبِّها إيَّاهُ وشغفَتْه واستمْلَحَها، فبينا هيَ تُحدِّثُه، إذْ أقبلَ فتًى مِنَ الحيِّ فدعَتْه وسارَّتْهُ سِراراً طويلًا، ثُمَّ قالَتْ لهُ: انصرِفْ، ونظرَتْ إلى وجه المجنونِ قد تغيَّرَ وانتُقِعَ لونُه وشقَّ عليهِ فعلُها، فأنشأَتْ تقولُ[3]: (مِنَ الوافر)

كِلَانَـــا مُظْهِـــرٌ لِلْنَـــاسِ بُغْضَـــا	وَكُـلُّ عِنْـــدَ صَاحِبِـــهِ مَكِيـــــــنُ
تُخَبِّـرُنَـــا العُيُـــونُ بِمَـــا أَرَدْنَـــا	وفِـــي القَلْبَينِ ثَـــمَّ هَـــوًى دَفِيـــنُ
وَنُظْهِـــرُ جَفْـــوَةً مِـنْ غَيرِ حِقْـــدٍ	وَحُبُّـــكَ فِـــي فُـــؤَادِي مَـــا يَبِيـــنُ
فَطِـبْ نَفْسًـــا بِـــذَاكَ وَقَـــرَّ عَينًـــا	فَـــإِنَّ هَـــوَاكَ فِـــي قَلْبِـــي مَصُـــونُ
وَأَسْـــرَارُ المَـــلَاحِـظِ لَيـسَ تَخْفَـــى	وَقَـــدْ تُغْـــرِي بِـــذِي اللَّحْـظِ الظُّنُـــونُ
وَكَيـفَ يَفُـوتُ هَـــذَا النَّـــاسَ شَـــيءٌ	وَمَـــا فِـــي النَّـــاسِ تُظْهِـــرُهُ العُيُـــونُ

فلَيلَى بعدَ فعلتِها هذهِ أدركَتْ مَدى حُبِّ المجنونِ لها، ولكي تُخفِّفَ عَنه ما حلَّ بهِ، وتُسكِّنَ روعَهُ اختارَتِ الألفاظَ المُناسِبةَ الَّتي أدَّتِ المعنى الَّذي أرادَتْ إيصالَهُ للمجنونِ مثلَ «مكين، دفين، مصون»، فحُسنُ انتِقائِها للألفاظِ، وحُسنُ توظيفِها لها في خدمةِ المعنى، كان كفيلًا بإيصالِ المَعنى بالصُّورةِ الواضحةِ لقَيس، ولذلكَ قيلَ: «عِندما انصرَفَتْ ليلَى عَنه كانَ أشدَّ النَّاسِ سُروراً وأقرَّهُم عَينًا[4]».

كيفَ لا وقدْ أدركَ مِنَ المعنى المُستكينِ وراءَ ألفاظِها أنَّ حُبَّهُ كبيرٌ في قلبِها كالحُبِّ الَّذي في قلبِه لها، وهذا يدُلُّ على التَّوافُقِ بينَ المعنى الَّذي أرادَتْ إيصالَهُ وبينَ الألفاظِ الَّتي اختارَتْها مِن أجلِ ذلِك، وهذهِ هيَ الغايةُ المرجوَّةُ مِن تلكَ الأبياتِ الرَّائعةِ.

فكانَ معنى هذِه الأبياتِ حكيمًا، أُدِّيَ بألفاظٍ أنيقةٍ اُختيرَتْ بدقَّةٍ وعنايةٍ، ممَّا جعلَها مُحكمةً مُتقنةً.

---

(٢) نقد الشِّعر: ١٥٠.

(٣) عيار الشِّعر: ١١.

(٤) الأبيات (١ ، ٢ ، ٥) في الأغاني: ١٢/٢ ، ١٣ ،والأوَّل في ذمِّ الهوى: ٣٠٤ ، والأبيات (١ – ٤) في بسط سامع المسامر: ٢١ ، والأبيات (١ ، ٥ ، ٦) في تزيين الأسواق: ١٥٥/١، والأبيات (١ ، ٢ ، ٥ ، ٦) في شاعرات العرب: ١٥٨، وجميعها في ديوان مجنون ليلى: ٢٩.

(٥) الأغاني: ٣١/٢.

وممَّا يدُلُّكَ على شدَّةِ حُبِّها للمجنونِ، وأنَّ الَّذي بقلبِها أضعافَ ما بقلبِهِ قولُها[1]: (مِنَ البسيط)

يَـا أَيُّهـا الـرَّاكِبُ المُزْجِـي مَطِيَّتَـهُ عَـرِّجْ لِأُنْبِـئَ عَنِّـي بَعْضَ مَـا أَجِـدُ
فَمَـا رَأَى النَّاسُ مِـنْ وَجْدٍ تَضَمَّنَهُـمْ إِلَّا وَوَجْـدِي بِـهِ فَـوقَ الَّـذِي وَجِـدُوا
أَهْـوَى رِضَـاهُ وَإِنِّـي فِـي مَوَدَّتِـهِ وَحُبِّـــهِ آخِـــرَ الأَيَّـــامِ أَجْتَهِـــدُ

فالوَجدُ هوَ الحُبُّ الشَّدِيدُ، والهَوى هوَ العشقُ، أي: محبَّةُ الإنسانِ للشَّيءِ وغلبَتُه على قلبِه، فضلًا عَن إقرارِها ببقاءِ حُبِّهِ في قلبِها لآخرِ أيَّامِها. ويُفهمُ مِن هذا شغَفُ لَيلى بحُبِّها لقَيسٍ. فعندَما غُلِّبَ حُبُّ قَيسٍ في قلبِها واستفاضَ، استدعَتْ مِنَ الألفاظِ ما يُعبِّرُ عَن ذلكَ كُلِّه، وجنَّدَتْها للإفصاحِ عنِ المعنى الَّذي أرادَتْ أنْ تُعبِّرَ عَنْه. فغدَتْ الأبياتُ تتمُّ على ما كانَ في قلبِها مِن حُبٍّ، وعلى ما جال في عقلِها مِن المعاني الَّتي عبَّرَتْ عنها بما يُناسِبُها مِنَ الألفاظِ.

ومِن خيرِ ما يُنبي عمَّا كانَ في قلبِها مِن حُبٍّ للمجنونِ، حُبٍّ كبيرٍ دفنَتْهُ بينَ أضلُعِها، مُحمَّلٍ باللَّومِ والعتابِ لمَا كان مِنه مِن إشهارٍ لهذا الحُبِّ، قولُها[2]: (مِنَ الخفيف)

بَـــاحَ مَجْنُـــونُ عَامِـــرٍ بِهَـــوَاهُ وكَتَمْـــتُ الهَـــوَى فَمُـــتُّ بِـــوَجْدِي
فَـإِذَا كَـانَ فِـي القِيَامَـةِ نُـــودِي مَـنْ قَتِيـلُ الهَـوَى تَقَدَّمْـتُ وَحْـدِي

وقولُها أيضًا[3]: (مِنَ السَّريع)

لَـمْ يَكُـنِ المَجْنُـونُ فِـي حَالَـةٍ إِلَّا وَقَـــدْ كُنْـــتُ كَمَـــا كَانَـــا
لَكِنَّـــهُ بَـــاحَ بِسِـــرِّ الهَـــوَى وإِنَّنِـــي قَـــدْ ذِبْـــتُ كِتْمَانَـــا

فهيَ تُحِبُّهُ ولكِنَّها قدْ حبسَتْ حُبَّهُ بداخلِها, وذلِكَ الحُبُّ المخفيُّ في قلبِها يحرقُها مِن شدَّةِ تأَجُجِ نارِه حتَّى يكادُ يقتُلُها، ورغمَ ذلكَ هيَ تُصِرُّ على كِتمانِه، وهذا مِصداق قولِها «كتمْتُ الهَوى، ذِبْتُ كِتمانا».

ومردُّ هذا الكتمانِ يرجِعُ إلى عاداتِ بعضِ القبائلِ، فعِندما يشتهرُ فيها عشقُ فتًى لفتاةٍ، ويتحدَّثُ بهِ النَّاسُ، يحرصُونَ على أنْ يَحولُوا دونَ زوَاجِهما، وما ذلكَ إلَّا لإثباتِ أنَّ فتاتَهُم كانَتْ عفيفةً نقيَّةَ العِرضِ، بعيدةً عمَّا يُدنِّسُ شرفَها، وأنَّها احتفظَتْ بأعزِّ ما تمْلكُه فتاةٌ، ولو أنَّهم زَوَّجُوها مَنْ هامَ بِها وتغنَّى بشعرِهِ فِيها لكانَ المفهومُ ضِمنًا أنَّهم قبلوهُ لَها سَتراً للعارِ، وتغطيةً لِما فرَّطَتْ فيهِ، وفي ذلكِ تصديقٌ لقولِ الوُشاةِ والعُذَّال. أمَّا إذا زوَّجوها غيرَه فسيُثبِتُ أنَّها احتفظَتْ بمَهرِ عِفَّتِها وبخيرِ ما تُقدِّمُه الأبكارُ للأزواجِ، وهكذا كانَتْ حالُ المجنونِ في ليلاهُ اشتِهاراً فحِرمانًا سلبَ منهُ عقلَه، وجعلَه هائمًا في الفَيَافي، حتَّى ماتَ مِن حُبِّهِ بغمِّهِ. ويُجسِّدُ هذهِ العاداتِ قولُ أبيها بعدَ أنْ جاءَهُ أبو المجنونِ وأُمُّه ورِجالُ عشيرتِه، فوعظُوه وناشدُوه اللهَ الرَّحِمَ، فقال: « أفضحُ نفْسي وعشيرَتِي، وآتي ما لمْ يأْتِهِ أحدٌ مِنَ العربِ، وأَسِمُ ابنتي بمِيسَمِ فضيحةٍ![4]».

لَيلَى كانَتْ مُدركةً أنَّ الإشهارَ يعني الحرمانَ، لذلكَ انتقَتِ الألفاظَ المُناسِبةَ لتأديةِ المعنى المُرادِ.

---

(٢) ديوان مجنون ليلى: ٣٠، ودونَ نسبة في الزُّهرة: ١٦١/١.

(٣) الكشكول: ١٨٦/١، وشاعرات العرب: ١٥٨.

(٤) الشَّكوى والعِتاب: ١٨١ ، والمستطرف: ٣٣/٣ ،٣٤ ،والكشكول: ١٨٥/١، وتزيين الأسواق: ١٤٣/٢، وشاعرات العرب: ١٥٨، وديوان مجنون ليلى: ٣٠.

(٥) ديوان مجنون ليلى: ١٧.

ومِمَّا يُؤَكِّدُ لنا كِتمانَها لحُبِّها لهُ رَّغمَ شدَّتِه واضطرامِ نيرانِه في قلبِها قولُها في الحالِ الَّذي تَقُولُ إليهِ عِندَ ذِكرِ المجنونِ[1]: (مِنَ الطَّويل)

إِذَا مَـذِلَتْ رجْلَـــي بَـــدَأْتُ بِذِكْـــرِهِ وَأَحْلُـــمُ فِـــي نَـــومِي بِـــهِ وَأَعِيـشُ
إِذَا ذُكِـــرَ المَجْنُـــونُ زَالَـــتْ بِذِكْـــرِهِ قُـــوَى النَّفْسِ أَو كَـادَ الفُـؤَادُ يَطِيـشُ
وَوَاللهِ مَـــا كَـــاد الفُـــؤَادُ يُجِنُّـــهُ وَإِنْ كَـــانَ صَـــدْرِي مِـنْ هَـوَاهُ يَجِيـشُ

فكرَّرَتْ كلمةَ «ذِكر» ثلاثَ مرَّاتٍ للتَّأكيدِ على دَوامِ ذكرِها لهُ، وداومُ الذِّكرِ يشي بكثرةِ الحُبِّ، ولكنَّهُ ذكرٌ خفيٌّ بينَها وبينَ نفسِها، وذلكَ خوفًا مِنَ الإشهارِ، ويُؤَكِّدُ لنا ما نذهبُ إليهِ قولُها في البيتِ الثَّالثِ، فهيَ تُقسِمُ باللهِ أنَّ قلبَها لمْ يُرِدْ أنْ يسْتَتِرَ على حُبِّه ويُخفيَهُ، رغمَ أنَّ صدرَها يغلي ويحترقُ مِن شِدَّةِ هذا الحُبِّ، لكنَّها وجدَتِ السِّترَ أبقى للمودَّةِ بينَهُما.

فاللَّفظةُ المُعجميَّةُ– كما هوَ معروفٌ– لا دلالةٌ مُطلقةٌ لها، بلْ إنَّ سياقَ استعمالِها هوَ الَّذي يُحدِّدُ دَلالتَها الدَّقيقةَ، ولَيلَى عرفَتْ كيفَ تُفاضلُ في انتقائِها لألفاظِها، ليس لتأْديةِ المعنى فحَسب بلْ لتأْكيدِه وترسيخِه، ممَّا جعلَ ألفاظَها تصبُّ في مصلحةِ مَعانيها، ويُكوِّنانِ معًا قطعةً شعريَّةً رائعةَ الجمالِ ومُتوافقةَ المعاني والألفاظِ.

ومِن أشعارِها أيضًا أشعارٌ قالَتْها في الإشفاقِ على حالِ المجنونِ الَّتي آلَ إليها بعدَها، وهي أيضًا جاءَتْ مُتوافقةَ المعاني والألفاظِ، مِنها قولُها عِندما ذُكِرَ لَها أنَّ المجنونَ أعيا الأطبَّاءَ داؤُهُ، ولمْ ينجحْ فيهِ الدَّواءُ، وصارَ إلى أسوَأِ حالةٍ مِن توحُّشِه في الصَّحراءِ؛ شقَّ ذلكَ على لَيلَى، فكتبَتْ إليهِ وأمرَتْ غُلَامًا بطلبِهِ حيثُ كانَ، قالَتْ[2]: (مِنَ الطَّويل)

فَلَو أَنَّ مَـا أَلْقَـى وَمَـا بِـي مِنَ الهَـوَى بِأَرْعَـــنَ رُكْنَـــاهُ صَفًـــا وَحَدِيـــدُ
تَقَطَّـــعَ مِـــنْ وَجْـــدٍ وَذَابَ حَدِيـــدُهُ وَأَمْسَـــى تَـــرَاهُ العَيـنُ وَهْـوَ عَمِيـــدُ
ثَلَاثُـونَ يَـومًا كُـلِّ يَـومٍ وَلَـيلَـةٍ أَمُـــوتُ وَأَحْيَـــا إِنَّ ذَا لَشَدِيـــدُ

فالقارِئُ للأبياتِ يلمسُ الإشفاقَ ويشفقُ، ولكِن على حالِها لا على حالِه، فهيَ بعدَ أن سمعَتْ بما حلَّ بهِ كتبَتْ لهُ هذهِ الأبياتَ لتُخفِّفَ عنهُ، وتُخبرَهُ بأنَّ الَّذي بِها أضعافَ ما بقلبِه ولكِنْ لا حِيلةَ لنا بما حلَّ بِنا. فالمقامُ مقامُ إشفاقٍ على ما حلَّ بالمجنونِ، والألفاظُ جاءَتْ خادمةً لهذا المعنى وموافقةً لهُ، فجميعُها يبعثُ على الشَّفقةِ، ولكنَّها ألبسَتْها ثوبًا جديداً جعلَ القارئَ يُشفقُ عليها لا على المجنونِ، لأنَّها أرادَتْ مِن وراءِ هذا كُلِّهِ أن يعلمَ المجنونُ أنَّ حُبَّه ما زال يسري في داخلِها، وأنَّها تلقى مِثل الَّذي يلقى، فلعلَّ ذلكَ يكونُ هوَ الدواءُ لهُ مِمَّا هوَ فيهِ، ولكنْ هيهاتَ هيهاتَ.

وتُمثِّلُ للشَّفقةِ على حالِ المجنونِ بِما يُوافقُها مِن ألفاظٍ في ما قالَتْهُ حينَ توَعَّدَها قومُها بقتلِها وقتلِه بعدَ أنِ اُفتضِحَ أمرُهما، قالَتْ[3]: (مِنَ الطَّويل)

تَـــوَعَّدَنِي قَـــومِي بِقَتْلِـــي وَقَتْلِـــهِ فَقُلْتُ اقْتُلُـــونِي وَاتْرُكُـــوهُ مِـنَ الذَّنْـــبِ
وَلَا تُتْبِعُـــوهُ بَعْـدَ قَتْلِـــي ذِلَّـــةً كَفَـــى بِالَّذِي يَلْقَـــاهُ مِنْ سَـورَةِ الحُـبِّ

فالشَّطرُ الثَّاني مِنَ البيتِ الثَّاني كفيلٌ بإيصالِ المعنى الَّذي تَرْمي إليهِ، فهيَ تقولُ اقتُلوني ولا تطْلُبوا مِنهُ أنْ يقتلَ نفسَه، فهوَ يكفيهِ ما يلقاهُ مِن حِدَّةِ الحُبِّ وآثارِه. والشَّفقةُ هُنا تتجَلَّى في أعظمِ صُوَرِها؛ لأنَّها ترى أنَّ ما حلَّ بهِ مِن حُبِّها كانَ وقعُه عليهِ أشدَّ مِنَ الموتِ

(٢) ديوان مجنون ليلى: ٣٠.
(٣) ديوان مجنون ليلى: ٣١, ولبعض الأعراب في الزُّهرة: ٢٨١/١.
(١) ديوان مجنون ليلى: ٣٠.

الَّذي يُهدِّدُونهُ بهِ، وهذا في رأيِها يكفيهِ، لذلكَ تطلبُ مِنهم قتلَها وحدَها لتفدِيهِ بروحِها، ولكِن إذا كانَ الحُبُّ وصلَ بهِ إلى الجُنونِ فما الَّذي سيحِلُّ بهِ إنْ هيَ ماتَتْ؟ ومِمَّا يُمكنُ أنْ نلحظَهُ في هذينِ البيتَينِ هوَ تكرارُ حرفِ القافِ، وهوَ مِنَ الحروفِ القمريَّةِ، ويُفيدُ هذا الحرفُ الغصَّةَ، ولا سِيَما في سياقٍ كهذا تتحدَّثُ فِيهِ عنِ القتلِ والتَّفريقِ، وقدْ وُفِّقَتْ كُلَّ التَّوفيقِ في استعمالِها لهذا الحرفِ في هذا الموضعِ، فقدْ أوصلَتْ مِن خلالِه غصَّاتِها وآهاتِها، ليسَ لأنَّ قومَها توَعَّدُوها بالقتلِ، ولكنَّها غصَّاتُ الفِراقِ الَّذي كانَ.

ومِن ذلكَ أيضًا إشفاقُها عليهِ عندَما علمَتْ أنَّ عقلَهُ اختلطَ، وأنَّه مزَّقَ ما عليهِ وتوحَّشَ بسببِها، فجاءَتْ إليهِ لمَّا أمكنَتْها الفُرصةُ، فكانَ مُطرِقَ الرَّأسِ ويَهْذي، فسلَّمَتْ عليهِ، ثُمَّ قالَتْ[1]: (مِنَ البسيط)

أُخْبِـرْتُ أَنَّكَ مِنْ أَجْلِـي جُنِنْتَ وَقَـدْ فَـارَقْتَ أَهْلَكَ لَـمْ تَعْقِلْ وَلَـمْ تُفِـقِ

فالَّذي جال في ذِهنِها هوَ معنى الإشفاقِ، وهوَ الَّذي دفعَها إلى زيارتِه، ولكِنَّها لمْ تُرِدْ أنْ تُظِهرَ ذلكَ أمامَهُ، فقدْ أخرجَتْ إشفاقَها إلى معنى الاستفهامِ المُبهمِ المُحمَّلِ باللَّومِ، أي: هل أنا أهلٌ لأنْ تُجَنَّ بي؟ ولذلكَ اختارَتْ مِنَ الألفاظِ ما يُؤَدِّي هذا المعنى، وقدْ وُفِّقَتْ أيَّما توفيقٍ في ذلكَ. وقدْ فهِمَ قَيسٌ هذا المعنى ولا عجبَ في ذلكَ، فهو شاعرٌ فحلٌ وإنْ كانَ الحُبُّ ذهبَ بعقلِهِ، ويدُلُّك على ذلكَ بيتٌ مِن أبياتٍ قالَها يُعارضُ فيها ما قالَتْهُ محبوبَتُه لَيلى[2]: (مِنَ البسيط)

لَـو تَعْلَمِينَ إِذَا مـا غِبْتِ مَـا سَقَمِـي وَكَيفَ تَسْهَـرُ عَينِـي لَـمْ تَلُومِينِـي

ومِمَّا يخدِمُ معنى الإشفاقِ والخوفِ، كما يدُلُّ على استمرارِ حُبِّها لهُ ما قالَتْهُ حينَ نزلَ بِها رجلٌ كانَ قدْ نزلَ بديارِ المجنونِ، ووصفَ لها ما آلَ إليهِ حالُه، فبكَتْ، ثُمَّ مكثَتْ طويلًا على تلكَ الحالِ مِنَ البُكاءِ والنَّحيبِ، ثُمَّ قالَتْ[3]: (مِنَ الطَّويل)

أَلَا لَيتَ شِعْـرِي وَالخُطُـوبُ كَثِيـرَةٌ مَتَـى رَحْـلُ قَيسٍ مُسْتَقِـلٌّ فَرَاجِـعُ

بِنَفْسِـي مَـنْ لَا يَسْتَقِـلُّ بِرَحْلِـهِ وَمَنْ هُـوَ إِنْ لَـمْ يَحْفَظِ اللهُ ضَائِـعُ

فهيَ رغمَ إشفاقِها على حالِه وخوفِها عليهِ بدأَتْ قولَها بتعبيرٍ يحملُ معنى التَّعجُّبِ «ألا ليتَ شِعري»، وهذا التَّعبيرُ يُقالُ عندَ الرَّغبةِ في معرفةِ أمرٍ خفيٍّ، فالتَّعجُّبُ هُنا خرجَ إلى معنى الاستفهامِ، ولكنَّهُ استفهامُ العارفِ، فهيَ تتمنَّى أنْ تعلمَ متى يرجعُ رحلُ قيسٍ، وهيَ عالمةٌ ومُدركةٌ أنَّه لنْ يرجعَ، وهذا مِصداقُ قولِها «لا يستقلُّ برحلِه». فالشِّعرُ هُنا معناهُ العِلمُ بأمرٍ معلومٍ عندَها، لكنَّ شدَّةَ حُبِّها لهُ دفعَها إلى تمنِّي رُجوعِ رحلِ قَيسٍ، ثُمَّ بعدَ ذلِك رأَينا كيفَ أحسنَتِ التَّخلُّصَ إلى خوفِها عليهِ مِنَ الضَّياعِ، وأنْ يحفظَهُ اللهُ. وبذلكَ تكُونُ لَيلى قدْ خلطَتْ بينَ معانِيها بأُسلوبٍ رائعٍ، زادَتْ رَوعتَهُ الألفاظُ الَّتي وظَّفَتْها لأداءِ تِلك المعاني بالشَّكلِ الَّذي أرادَتْ، لتحقيقِ التَّوافُقِ بينَهما.

ومِمَّا يُظهرُ لنا شدَّةَ حُزنِها وألمِها، ويُبيِّنُ لنا ما حلَّ بِها بعدَ أنْ فُرِّقَ بينَها وبينَ المجنونِ بعدَ أنْ كُشِفَ أمْرُهما، كما يُبيِّنُ لنا خوفَها وإشفاقَها اللذَينِ تُخفيهِما وراءَ ألفاظِها قولُها[4]: (مِنَ البسيط)

قَـدْ كُنْـتُ حَـاذِرَةً لِلدَّهْـرِ عَارِفَـةً أَنْ سَـوفَ يَطْلُبُنِـي بِالرَّمْـيِ مُفْتَقِـدَا

حَتَّـى رَمَانِـي بِمَنْ قَدْ جَلَّ عَنْ صِفَتِـي فَمَـا أَرَى لِـي بِـهِ وَيلِـي الغَدَاةَ يَـدَا

لِقْـتُ الـدَّوَاةَ بِمَـاءِ العَينِ ثُـمَّ بِـهِ كَتَبْتُ مَـا يَكْتُبُ المَجْهُـودُ إِذْ جَهَـدَا

---

(٢) تزيين الأسواق: ١٦٣/١، وديوان مجنون ليلى: ٣٠.

(٣) نديم المُسامرة:

(٤) الأغاني: ٥٧/٢، وأشعار النِّساء: ٨٨، مصارع العُشَّاق : ٣٣/١، وذم الهوى: ٣٠٤، وبسط سامع المسامر: ٤١، وتزيين الأسواق: ١٦٥/١، وشاعرات العرب: ١٥٩، وديوان مجنون ليلى: ٢٨.

(١) ديوان مجنون ليلى: ٣١.

هَذَا الـوَدَاعُ لِمَنْ رُوحِـي الفِدَاءُ لَـهُ قَــدْ خِفْـتُ أَلَّا أَرَاهُ بَعْـدَهُ أَبَـــدَا

فالأبياتُ تُخبرُ بحالِها وبما نزلَ بها، فبعدَ هذا الفِراقِ ضاقَ صدرُها وكثُرَ بُكاؤُها مِن شِدَّة شوقِها الَّذي كوَى قلبَها، وفي نهايةِ الأبياتِ نَرى وداعًا مِنها للمجنونِ، وكأنَّها تُسلِّمُ أمرَها للهِ وتنقادُ للأمرِ الواقعِ، وللقدرِ المحتومِ الَّذي كَتبَ عليهِما أنْ يكتويا بنارِ الهجْرِ، وقدْ كانَ هذا التَّسليمُ مِنها رُغمَ نفادِ صبرِها وتواترِ أحزانِها وأسقامِها إلَّا أنَّ خوفَها وإشفاقَها على قيسٍ دفَعاها إلى ذلكَ، فما حلَّ بها ليسَ بسهلٍ، ولكنَّها تدَّعي الصَّبرَ تخفيفًا عنْ قَيسٍ الَّذِي تفْدِيهِ برُوحِها، ولا عجبَ في ذلِك فالمُحبُّ يفْدي مَن يُحبُّ بأغلى ما يملكُ، وهذا يدُلُّكَ على شدَّة الحُبِّ بينَهُما.

فما جالَ في خَلدِها لمْ يقتصِرْ على معنًى واحدٍ فقطْ، فالحُزنُ والألمُ كانا حاضرَينِ، وإلى جانبِهما كانَ معنى الخوفِ والإشفاقِ حاضراً كذلِك، كما أنَّ معنى الحُبِّ خالِدٌ في خَلدِها، ورُغمَ كثرةِ المعاني نراها قدِ استدْعَتْ لكُلِّ معنًى ما يُناسِبُهُ مِنَ الألفاظِ الَّتي عملَتْ على تأْدِيَتِه خيرَ أداءٍ.

ولَها في جوَابِ شِعرٍ لهُ[1]: (مِنَ البسيط)

نَفْسِـي فِدَاؤُكَ لَــو نَفْسِـي مَلَكْتُ إِذَنْ مَـا كَـانَ غَيـرُكَ يُجْزِيهَـا وَيُرْضِيهَــا

صَبْرَاً عَلَــى مَـا قَضَاهُ اللهُ فِيكَ عَلَـى مَــرَارَةٍ فِـــي اصْطِبَارِي عَنْكَ أُخْفِيهَــا

فالواضحُ مِن قولِها أنَّها تحُثُّه على الصَّبرِ والرِّضى بما قضى اللهُ بينَهُما، لكنَّها أرادَتْ أنْ توصلَ لهُ أنَّها قدْ تجرَّعَتِ المُرَّ بعدَ ما حصلَ، وأنَّها تتحمَّلُ كُلَّ ذلكَ الأسى وتُخفيهِ عنهُ، كيلا تزيدَ النَّارَ ناراً، ولا سِيما أنَّها قدْ زُوِّجَتْ مِن غيرِه. فنراها ساقَتِ الألفاظَ المُناسبةَ للتَّعبيرِ عن ذلِكَ المعنى، فكان لهُما مِنَ التَّوافُقِ ما كانَ.

ومِن خلالِ ما سبقَ رأْينا كيفَ جاءَتِ الألفاظُ الَّتي انتقَتْها لَيلى موافقةً للمعاني الَّتي أرادَتْها، ذلكَ لأنَّ السِّياقَ يقودُ بمُجملِه إلى تحديدِ مفهومٍ واحدٍ للكلمةِ المُعجميَّةِ مِن بينِ عددٍ مِنَ المفاهيمِ الَّتي تُشيرُ إليها أو تدُلُّ عليها وهيَ قابعةٌ في المُعجمِ[2]، ولَيلى عرفَتْ كيفَ تختارُ هذهِ الألفاظَ وتُجنِّدُها لتحديدِ مفهومٍ واحدٍ تقصُدُه لخدمةِ المعنى، وهذا التَّوافُقُ لمْ يأتِ محضَ صُدفةٍ، ولكنَّه أتى عَن عنايةٍ ودرايةٍ بالشَّيءِ الَّذي تَكتبُ لهُ أو مِن أجلِهِ، لأنَّ مِن أهمِّ أسبابِ الوَهمِ هوَ جهلُ الشَّاعرِ بِما يذْكرُه، ولَيلى كانَتْ مِن أعلمِ النَّاسِ بمجنونِها، لهذا رأينا هذا الاتِّحادَ بينَ ألفاظِها ومعانِيها ، وكانَتْ نتيجةُ ذلكَ الاتِّحادِ جمالَ أشعارِها وذلكَ لحُسنِ ألفاظِها وعُمقِ معانِيها.

ومِن خلالِ هذا كُلِّهِ يُمكنُ القولُ إنَّ الحالَ وافقَتْ مُقتضاها، وهيَ الغايةُ المَرجوَّةُ.

يقولُ ابنُ طَباطِبَا: « وللمعاني ألفاظٌ تُشاكِلُها فتَحسُنُ فيها وتَقبُحُ في غيرِها، فهيَ كالمَعْرضِ للجاريةِ الحَسناءِ الَّتي تزدادُ حُسنًا في بعضِ المعارضِ دونَ بعضٍ، فكم مِن معنًى حَسنٍ قدْ شينَ بمعرضِه الَّذي أُبرزَ فيهِ، وكمْ مِن مَعرضٍ حَسنٍ قدِ ابْتُذِلَ على معنًى قبيحٍ أُلْبِسَهُ[3]».

وبهذا القولِ ختمْتُ هذا البحثَ بعدَ السَّعي إلى تحقيقِ الهدفِ الَّذي قامَ مِن أجلِهِ ألا وهوَ كشفُ التَّوافُقِ بينَ المعاني والألفاظِ في أشعارِ لَيلى العامِرِيَّةِ. وقدْ صدقَ وأحسنَ مَن قالَ هذا القولَ الَّذي يدُلُّكَ على أثرِ الحُبِّ في نفوسِ وقُلوبِ المُحبِّينَ: « وللحُبِّ في نُفوسِ المُعذَّبينَ وقعٌ يعيشُونَ في عالمِهِ، فيضحُونَ سلاطينَ أدبٍ وفلاسفةَ حكمةٍ ومُلوكَ نثرٍ وشعرٍ، أحرقَتْهُم مرارةُ العبارةِ على كُلِّ

(٢) معجم شاعرات العرب: ١٥٨.

(٣) دلالة السِّياق: ٢٩٥، ٢٩٦.

(٤) عيار الشِّعر: ١١.

وترٍ عزفَتْهُ أناملُ الزَّمنِ، فكانَ للمرارةِ في أفْئدتِهم أكبرُ الأثرِ في طهارةِ الألفاظِ والمعاني والعِبرِ، غنُّوا في قصائِدِهم أروعَ الكلماتِ في أروعِ الأبياتِ الَّتي تُطربُ قُلوبَ العاشقينَ الوالهينَ عندَ سماعِها في كُلِّ مرَّةٍ [٨]».

الخاتِمةُ:

وهكذا رأيْنا بعدَ هذهِ الدِّراسةِ التَّطبيقيَّةِ لقضيَّتَيّ اللَّفظِ والمعنى وتوافُقُهما في أشعارِ لَيلى العامريَّة– وذلكَ مِن خلالِ دراسةِ تلكَ الأشعارِ والغوصِ في معانِيها، وما اخْتِيرَ لها مِن ألفاظٍ تُناسِبُها– أنَّ التَّوافُقَ بينَهُما بدا واضحًا، يلمسُه القارئُ لأشعارِها والمُدرِكُ لأخبارِها؛ لأنَّ مَن أرادَ فهمَ المعنى لا بُدَّ لهُ مِن إدراكِ الخبرِ، ولذلكَ عمدْتُ إلى ذكرِ بعضِ أخبارِها وبعضِ القِصصِ حولَ أشعارِها.

وبعدَ أنْ وصلَ بيَ الطَّريقُ إلى هُنا لا بُدَّ لي مِن إجمالِ أهمِّ النَّتائِجِ الَّتي خلصْتُ إليها وأنا في غمرةِ هذا البحثِ عن قضيَّتَيّ اللَّفظِ والمعنى والتَّوافقِ بينَهُما في أشعارِ لَيلى العامريَّةِ.

– تعرَّفْنا إلى لَيلى العامريَّةِ الشَّاعرةِ، وليسَ المُحبَّةُ فقطْ.

– إنَّ قضيَّتَيّ اللَّفظِ والمعنى شغلَتْ العُلماءَ والنُّقَّادَ مُنذُ القديمِ وحتَّى عصرِنا الحالي، فلا نراهُم يتَّفِقونَ جميعُهم على رأيٍ واحدٍ.

– أكثرُ العُلماءِ والنُّقَّادِ العرب كانُوا يميلُونَ إلى أنَّ المعنى سابقٌ للَّفظِ، في حين ذهبَ علماءُ الغربِ إلى المُساواةِ بينَهما.

– عرفْنا مدى حُبِّ لَيلى لمجنونِها، وأنَّ ما كانَ لهُ في قلبِها لمْ يكُنْ أقلَّ مِنَ الَّذي كان لها في قلبِه.

– مدى التَّوافُقِ الَّذي كان بينَ ما تأتَّى في ذهنِها مِن معانٍ وما ساقَتْ لهُ مِن ألفاظٍ تُناسِبُه وتُؤَدِّيهِ على أكملِ وجهٍ.

– التَّناغمُ بينَ الألفاظِ المُختارةِ.

– عمقُ معاني أشعارِها.

ولعلَّ مِن أبرزَ نتائجِ التَّوافُقِ بينَ اللَّفظِ وبينَ المعنى هوَ ذلكَ الإحساسُ الَّذي تعيشُه عندَ قراءةِ الأبياتِ، وذلكَ الشُّعورُ الَّذي يكونُ كفيلًا بإيصالِكَ إلى استنتاجِ مدى قوَّةِ هذا الحُبِّ واستمرارِهِ؛ لأنَّ ترابُطَ الألفاظِ لمْ يكُنْ إلَّا نتيجةَ اتِّحادِها معَ المعاني، وهذا الاتِّحادُ أعطى للأبياتِ جمالًا فوقَ جمالِها؛ لأنَّنا تمكَّنْا مِن خلالِهِ أنْ نغوصَ إلى أعماقِها، وتمكَّنَتْ ليلى مِن أنْ تُؤَثِّرَ في القارِئِ وكأنَّه هوَ الّذي يكتوي بنارِ الهجْرِ بعدَ ذلِك الحُبِّ الكبيرِ.

وهذا كُلُّه يدُلُّ على أنَّ لَيلى شاعرةٌ مُحبَّةٌ لديها عاطفةٌ صادِقةٌ، هذهِ العاطفةُ جعلَتْ هذا التَّواؤُمَ بينَ ألفاظِها ومعانِيها قويًّا؛ لأنَّهُ نابعٌ مِن قلبٍ مُحبٍّ وعقلٍ مُغرمٍ، وجسدٍ مُعذَّبٍ اكتوَى بنارِ الهجْرِ والفِراقِ، فغَدا هزيلًا يُسقى بدمعٍ حارٍّ مِن عينِيها، دمعٌ لا يكادُ ينْضبُ على حبيبٍ كانَتْ تنهضُ باسمِه إذا عَثَرَتْ، وتحلمُ بوجهِه إذا رقدَتْ.

وعلى اللهِ أتوَكَّلُ وأُخلصُ النِّيَّة، وإليهِ أُنيبُ، هوَ حسبي ونِعمَ الوَكيلُ.

التمويل:

هذا البحث ممول من جامعة دمشق وفق رقم التمويل(٥٠١١٠٠٠٢٠٥٩٥).

(٨) الحبُّ على أغصان المعاني: ٢١.

المصادرُ والمراجعُ:

١. أشعار النِّساء، لأبي عُبَيد المَرْزُبَانِيّ، تحقيق: سامي مكّي العاني وهِلال ناجي، دار عالم الكُتب، بيروت، ط١، ١٩٩٥.
٢. الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق: إحسان عبّاس وبكر عبّاس وإبراهيم السّعافين، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٢.
٣. بسط سامع المسامر في أخبار مجنون بني عامر، لشمس الدِّين بنِ طولون، تحقيق: محمَّد إبراهيم سليم، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ١٩٩٤.
٤. البيان والتَّبيين، لعَمرو بن بحرٍ الجاحظ، تحقيق: عبد السَّلام هارون، دار الفكر، بيروت.
٥. تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العُشَّاق، لداود الأنطاكيّ، تحقيق: محمَّد ألتونجي، دار الكُتب، بيروت، ط١، ١٩٩٣.
٦. جمهرة أنساب العرب، لابن حزم الأندلسيّ، تحقيق: عبد السَّلام هارون، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٦٢.
٧. الحيوان، لعمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السَّلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦.
٨. دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجُرجانيّ، تعليق: محمود محمَّد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٤.
٩. دلالة السِّياق، لردَّة الله بن ردَّة الطّلحيّ، رسالة دكتوراه نُوقشت في جامعة أمّ القرى، مكَّة المُكرَّمة، ١٤٢٣ هـ.
١٠. ديوان مجنون ليلى، لعبد السَّتَّار فرَّاج، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٧٦.
١١. ذمّ الهوى، لأبي الفرج بنِ الجوزيّ، ضبط وتصحيح: أحمد عبد السَّلام عطا، دار الكُتب العلميّة، بيروت، ط٢، ١٩٩٣.
١٢. الزُّهرة، لأبي بكرٍ الأصبهانيّ، تحقيق: إبراهيم السَّامُرائيّ، مكتبة المنار، الأردن الزَّرقاء، ط٢، ١٩٨٥.
١٣. شاعرات العرب في الجاهليَّة والإسلام، لبشير يَموت، المكتبة الأهلية، بيروت، ط١، ١٩٣٤.
١٤. شرح ديوان الحماسة، لأبي علي المَرزُوقي، تحقيق: أحمد أمين وعبد السَّلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١ ، ١٩٩١.
١٥. العُمدة في محاسن الشّعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمّد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٩٨٨.
١٦. عيار الشِّعر، لابن طَباطِبا العلوي، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع، دار العُلوم، الرِّياض، ١٩٨٥.
١٧. فنُّ الشِّعر، لإحسان عبَّاس، دار الطِّباعة، بيروت، ١٩٥٩.
١٨. قضيَّة اللَّفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربيَّة، لمحمَّد بنِ حسن العَماريّ، رسالة دكتوراه نُوقشت في جامعة الأزهر، القاهرة، ١٩٦٧.
١٩. الكشكول، لبهاء الدِّين العامليّ، مؤسَّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط٧، ١٩٩٩.
٢٠. اللَّفظ والمعنى في التَّفكير النَّقدي والبلاغي عند العرب، للأخضر جمعي، اتِّحاد الكُتَّاب العرب، دمشق، ٢٠٠١.
٢١. مصارع العُشَّاق، للشَّيخ جعفر بنِ أحمد القارئ، دار بيروت، بيروت، ١٩٨٠.
٢٢. نقد الشِّعر، لقُدامة بنِ جعفر، تحقيق: كمال مُصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٧٨.